

مصطفى عبد الرازق

كان أحب شيء إليه المهل ، وأبغض شيء إليه السرعة . كان مستأنياً إذا قال ، مستأنياً إذا فكر ، مستأنياً إذا عمل ، مستأنياً إذا سعى . وكان يؤثر بيتين من شعر أبي العلاء في رثاء أبيه ويكثر إنشادهما ، ولعله كان يفضلهما على شعر أبي العلاء كله ، وهما قوله :

فيما ليت شعري هل يخفّ وقاره إذا صار أحدٌ في القيامة كالعهن
وهل يرد الخوض الروي مبادراً مع الناس أم يخشى الزحام فيستأني

ذلك إلى أنه كان وقور العقل والقلب والجسم ، وكنا نعرف منه ذلك ونداعبه به وننتدر بوصوله متأخراً في كل موعد . وكنا إذا ارتبطنا معه بموعد أو اجتماع قدرنا دائماً أنه سيصل متأخراً دقائق تكثر أو تقل . ليس لهذا كله مصدر إلا أنه كان مستأنياً الطبع لا يحب العجلة في شيء . وقد كان هذه الأناة أثر بعيد في حياته كلها ، فكان أقل الناس تورطاً في خطأ لفظي أو عملي ؛ لأنه لم يكن يتكلم إلا عن تفكير ، ولم يكن يعمل إلا عن روية . ولم يكن يحكم إلا عن بصيرة .

ويمكن أن نلاحظ أثر هذه الأناة في صلاته بالناس . فما أعرف أن أحداً شكاً منه أو أضمر له شراً أو احتفظ له في نفسه بموجدة أو ضغينة ؛ لأنه كان مكفوف الأذى عن الناس جميعاً ، مبسوط الخير للناس جميعاً . وأكثر ما يسيء بعض الناس إذا بعض حين يعجلون في الرأي والقول والعمل . ولم يكن يعجل في شيء من هذا ؛ فلم يكن يسيء إلى أحد . وقد كان الناس يعجلون عليه فيلقونه بالكلمة النابية أحياناً ، ولكنه كان يعرف كيف يستأني بهم ويحلم عليهم ويردهم إلى الحياء منه بل إلى الحياء من أنفسهم قبل أن يستحووا منه . وفي الطبيعة الإنسانية شر كثير ؛ فقد كان بعض الناس يكيّدون لهذا الرجل الذي برئت نفسه من الكيد ، ولكنه كان من طهارة القلب وصفاء النفس وتقواء

الضمير بحيث لا يؤذيه كيد الكائدين ، أو قل بحيث لا يبلغه كيد الكائدين . كان يرتفع عن الصغائر كلها ، وأى شئ أصغر من الكيد ! كانت صلاته بالناس كلها صفواً . وكان هذا الصفو يأتي منه أكثر مما يأتي من الناس ؛ وكان هذا الصفو يأتي منه لأنه كان يستأنى بالناس دائماً ولا يعجل عليهم فى شئ . وأذكر أنه فى ذات عام من الأعوام تعرض لبعض الشر فى منصبه الذى كان يشغله بوزارة العدل ، فلم يعجل ولم يسرف على نفسه ولا على أحد بقول أو عمل ، وإنما ابتسم للمكروه حين أقبل عليه ، وابتسم للمكروه حين أدبر عنه ، ولم يصرفه هذا المكروه لحظة عن حياته النقية الصافية ، وصلاته الأبية الكريمة بالناس . كان ثروت باشا رئيساً للحكومة ، وكان الخلاف عنيفاً بين الحكومة والوفد ، وكان سعد بعيداً عن مصر فى منفاه فى أقصى الشرق أو فى أقصى الغرب ، لا أذكر ، وكانت أسرة مصطفى عبد الرازق مؤيدة للحكومة مخاصمة للوفد ، ولكن صلات قديمة كانت تصل بين سعد وبين أسرة عبد الرازق ، فلم تستطع الخصومة على عنفها أن تبلغ هذه الصلات فى قلب هذا الصديق الكريم . وقرأ الناس فى الصحف ذات يوم أن مصطفى عبد الرازق مر بدار سعد وترك بطاقته لمناسبة عيد من الأعياد ، فلم ينكر أصدقاء مصطفى من ذلك شيئاً . ولكن أيام العيد تنقضى ويستأنف مصطفى عمله فى وزارة العدل . وإنه لفى ذلك وإذا الوزير يدعو فيسأله : أفى الحق أنك ذهبت إلى دار سعد ؟ قال مصطفى : نعم . قال الوزير : أتعلم أنك موظف ، وأن الموظفين لا ينبغي أن يسعوا إلى الدار التى تخاصم فيها الحكومة ؟ قال مصطفى : لا أعلم إلا أن بينى وبين سعد صلات مودة قديمة ، وأن أيسر الوفاء لهذا الود يفرض على أن أمر بداره أيام العيد . قال الوزير : فانك منقول إلى أسيوط . فلم يزد مصطفى على أن ابتسم وانصرف .

وكان ثروت باشا غائباً عن القاهرة ، فلما عاد وصل إليه النبأ ، فتقدم إلى وزير العدل فى أن يلغى هذا الأمر السخيف ؛ لأن ثروت باشا كان ك مصطفى عبد الرازق يقدر صلات المودة بين الناس ، ويعلم أن لهذه الصلات حقوقاً لا يقصر فيها الرجل الكريم .

وأشهد لقد سمعت ثروت باشا يقول متضحكاً : سامح الله وزير العدل ! يريد أن يعاقب رجلاً على سروته .

وقد مضى مصطفى على هذه السيرة حياته كلها ، لم تعجله السياسة ولم تعجله

المنافع الخاصة ، ولم تعجله الظروف مهما تكن عن رعاية الحقوق كما ينبغي أن ترعى ، وعن الوفاء للناس كما ينبغي أن يكون الوفاء .

كان خلقه يرفعه عن الصعائر حتى ينزله منازل النجوم . وكان خلقه يهبط به إلى حيث حاجات الناس وآلامهم ومصالحهم ذات الخطر وغير ذات الخطر . فلم أرى رجلاً كان أرفع منه نفساً وأشد منه تواضعاً في وقت واحد . وهل يكون التواضع إلا لأصحاب النفوس الرفيعة !

إن الذين يألمون لفقد مصطفى من أهله وذوى خاصته ومودته من الأصدقاء الأقربين ومن الذين وصلت بينه وبينهم شؤون الحياة الاجتماعية لقليلون جداً بالقياس إلى هؤلاء الناس الكثيرين الذين لا يعرفهم أحد أو لا يكاد يعرفهم أحد ، والذين كان مصطفى يتلقاهم كما كان يتلقى أرفع الناس قدراً ، ويسعى إليهم كما كان يسعى إلى أرفع الناس قدراً ، ويرفق بهم كما كان يرفق بأقرب الناس إليه وآثرهم عنده ، لا يتكلف ذلك ولا يشق على نفسه به ، وإنما يراه شيئاً طبيعياً لا يحتاج إلى جهد أو عناء . كان يصنع ذلك حين كان طالباً في الأزهر ، يسمر إذا أقبل الليل مع أرفع المصريين مكاناً في داره ، ويسعى إذا أقبل النهار مع الطلاب من جميع الطبقات ، يسعى بينهم كواحد منهم لا يجدون منه كبراً ولا شيئاً يشبه الكبر . وكان يصنع ذلك بعد أن أصبح عالماً من العلماء وأستاذاً في مدرسة القضاء . وكان يصنع ذلك طالباً في أوروبا مع رفاقه من المصريين والفرنسيين جميعاً قبل أن تثار الحرب الأولى وبعد أن أثرت . وكان يصنع ذلك بعد أن عاد من أوروبا وقد شغل المناصب المختلفة في الأزهر ووزارة العدل وفي الجامعة بنوع خاص ، في الجامعة حيث يسعى الفقر والغنى مصطحبين ، يظهر الغنى نفسه في كثير من القحة ، ويخفى الفقر نفسه في كثير من الحياء . في الجامعة حيث يذهب بعض الطلاب في السيارات وإن قربت الدار ، وحيث يذهب بعضهم سعيّاً على الأقدام وإن بعدت الدار . في الجامعة حيث تؤدي قلة قليلة أجور الدرس عن سعة ، وحيث تشقى كثرة كثيرة بالعجز عن أداء هذه الأجور . في الجامعة لا يكون الأستاذ الصالح أستاذاً صالحاً لأنه يلقي الدرس على وجهه ويعلم الشباب كما ينبغي أن يتعلموا فحسب ، وإنما يكون الأستاذ الصالح أستاذاً صالحاً حين يتفقد شؤون هؤلاء الشباب في أناة وخفة ورفق ، وحين يعلم من خفى أمرهم ما يعلم ، فيصلحه بالحب والعطف والعون الذي لا يصدر عن تفضل ولا عن

تطول ، وإنما يصدر عن محبة ومودة ، لا يكاد يشعر به من يبذله ، ولا يكاد يشعر به من يتلقاه .

وأشهد لقد كان مصطفى أصلح الأساتذة جميعاً في كلية الآداب من هذه الناحية التي لا يكون الأستاذ أستاذاً إلا بها .

هذا بعض آثار الأناة في الصلات بين مصطفى وبين الناس . ولكن للأناة آثاراً أخرى في حياته الخاصة ، في حياة مصطفى الأديب الذي لم يكن يحب التعجل بما يكتب ولا بما يقول ، وإنما كان يختار اللفظ ويلتزم بينه وبين المعنى ، يبذل في ذلك أعنف الجهد وأقساه ، يخلو إلى ذلك حين يتفرق عنه الناس أي حين يتقدم الليل . يقتطع لذلك من وقت راحته ومن الوقت الذي كان ينبغي أن يختص به نفسه وأهله . يحكم المعنى ، ويحكم اختيار اللفظ لهذا المعنى ، ولا يكفي ذلك حتى يلتزم بين اللفظ واللفظ وبين المعنى والمعنى ، وحتى يخرج القطعة الأدبية كأنها قطعة الحلي قد صيغت كأحسن ما يصاغ الحلي على أدق أصول الفن وقواعده . وما أعرف أن أديباً معاصراً أتاحت له الإحادة الفنية كما أتاحت لمصطفى ، ومصدر ذلك أنه كان يستأنى بإنتاجه ، ولا يعجل به .

وللأناة أثرها البالغ في حياة مصطفى الأستاذ ، وفي حياة مصطفى الباحث ؛ فلم يكن يحب أن يتعجل بالدرس قبل أن يتقن إعداده كأحسن ما يكون الاتقان ، ولم يكن يحب أن يتعجل تلاميذه بالفهم عنه ، وإنما كان يأخذهم بالأناة في القراءة وفي الفهم وفي التفسير كما كان يأخذ نفسه بها . ومن أجل هذا كان له تلاميذ بأدق معاني هذه الكلمة بين الشباب الجامعيين . وكان يستأنى ببخته عن أي مسألة من مسائل العلم ، يستقصى ما وسعه الاستقصاء ، ويحل ما وجد إلى التحليل سبيلاً ، ويقلب النص على كل وجه من وجوه التقلب ، ولا يتعجل بعد ذلك بإصدار الحكم ، وإنما يضع أمامك النصوص ويعينك على فهمها واستخراج الحقائق منها .

ومن أجل هذه الأناة كان مصطفى أديباً مقلاً ، وعالمًا مقلاً . ورب قليل خير من كثير .

لست أدري أفرغ الناس من هذا الحزن العنيف الذي يحصد النفوس فيمنعها من التفكير والتأمل . وأكبر الظن أنهم لن يفرغوا من هذا الحزن العنيف على فقد مصطفى قبل وقت طويل جدًا . ولكن الشيء الذي أحققه هو أن الحزن

الغيف على فقدته يمنعهم الآن من تقدير النكبة فيه . إنها نكبة في الخلق ؛ فقد كان مصطفى آية في الخلق الكريم . وما أقل الآيات في الأخلاق ! إنها نكبة في الأدب ؛ وقد كان مصطفى مؤمنا بكرامة الانتاج الأدبي . وما أقل المؤمنين بكرامة الأدب ! إنها نكبة في العلم ، فقد كان مصطفى أعرف الناس بحقوق العلم على العلماء . وما أقل العلماء الذين يعرفون ما للعلم عليهم من حقوق ! إنها نكبة في الإصلاح بأوسع معاني الإصلاح ؛ فقد كان مصطفى أحسن خليفة ممكن للاستاذ الإمام ، ورث عنه علمه وضموجه إلى الخير ، وأضاف إلى هذا التراث من العلم بالحضارة الحديثة شيئا كثيرا . وأتيح له منذ تولى أمر الأزهر ما لم يتح لأستاذه من السلطان . فكان خليقا أن يمضي بالإصلاح الديني والعلمي والخلقي في البيئة الأزهرية إلى أبعد الغايات . وأشهد لقد كان يعمل لذلك جادا ، ولكن في أناة ورفق .

رحم الله مصطفى ! وأعزز علىَّ بأن أملى هذا الدعاء . رحم الله مصطفى ! لقد كانت الأناة أخص صفاته ، ولكن الأناة ليست من صفات الموت . ليت الموت استأنى بمصطفى ليتم ما يسر له من الخير . ولكن الموت لا يستأنى بأحد . وربما كان أبغض شيء إلى الموت أن يستأنى بالأخيار من الناس .

ط م ص